الفصلُ الرابعُ
ذوُ النورين

هجرتُه إلى المدينةِ:

قضى رسول الله ﷺ ثلاثةَ عشرَ عاماً في «مكةَ» داعياً إلى الله متحمِّلاً في سبيلهِ الأذى، هو ومَنْ معه من المسلمين، حتى خففَ اللَّه عنهمْ جميعاً، فأذنَ لهم بالهجْرة إلى «المدينةِ المنورةِ» بعدَمَا تقبلَ «الأوسُ» و«الخزرجُ» – وهُمَا القبيلتانِ اللتانِ كانتَا تقيمانِ بيثربَ –اسم المدينةِ المنورةِ قبلَ هجرةِ الرسولِ إليهَا– وكانا قد تقبلا دعوةَ الرسولِ بعدما حببَ اللَّهُ إليهمُ الإيمانَ، وكانَ ذلكَ حينمَا دعاهمْ الرسول ﷺ إلى الإيمانِ في بيعتيْ العقبةِ الأولى، والثانيةِ، ومهدَ هؤلاءِ المؤمنونَ للإسلامِ في «يثربَ» حتى هاجرَ إليهَا الرسُولُ وقبْله وفودُ الصحابة، وكانَ بينَ المهاجرينَ «عثمانُ». وازدانت المدينة وتَنوَرت بهجرةِ «الرسول ﷺ» إليهَا فصارت المدينة المنورَة، أخذَ الرسول ﷺ يؤاخي بينَ المهاجرينَ والأنصارِ، فيختارُ لكلِّ واحدٍ من المهاجرينَ أخاً لَه من الأنصارِ، يختارُ له أخاً لم تلدْه أمُّه، ولكنَّها الأخوَّةُ في أسمَى معانيهَا ليستْ أخوةَ النسبِ وإنما هي أخوةُ الدينِ، وهلْ هناكَ شيءٌ أوثقُ من اثنينِ اجتمَعَا على طاعةِ اللَّهِ؟.

آخى الرسول ﷺ بين «عثمانَ» وصحابيٍّ جليلٍ هو «أوسُ بنُ ثابت بن المنذر» وهو أحدُ الأنصارِ من قبيلةِ «بني النجارِ»[1].

مشكلةٌ في المدينةِ:

كانَ «عثمانُ» واحداً من المسلمينَ الذينَ صبروا على أذَى المشركينَ في مكةَ، وهو الجميلُ المحبوبُ، المنعَّمُ في قومِه، يحبُّه «أهلُ قريشٍ» جميعاً تتغنَّى بحبِّه الأمهاتُ يُدلِّلْن به أطفالَهنَّ، حتى إذا أسلَم «عثمانُ» المحبوبُ المقربُ من الجميعِ، صارَ في نظرهمْ إنساناً آخرَ لأنه اتبعَ الحقَّ.

أما «عثمانُ» فقدْ تنازلَ بكلِّ رضًى عن مكانتِه بينَ «قريشٍ»، وعن مالِه الكثيرِ الوفيرِ الذي كانَ يتيحُ له حياةً مريحةً وعرَّضَ حياته للخطرِ الشديدِ، في هجرتِه إلى الحبشةِ، فعلَ ذلكَ كلَّه عن طيبِ نفسٍ، لأنهُ اختارَ «اللَّه» ورسولَه، وأحسَّ حينمَا عَمَرَ الإيمانُ قلبَه بالراحةِ التي لمْ يشعرْ بها من قبلُ، كذلكَ كانَ جميعُ الصحابة ولكنَّ عثمانَ منْ بينهم كانَ المميزَ في إنفاقه من مالِه على الدعوة، وكيفَ لا وهو الكريمُ السخيُّ، الذي يعرفُ أن ما عندَ اللَّهِ هو خيرٌ له، وأبقَى في الدارِ الآخرةِ[2].

١- سيرة ابن هشام -مكتبة شقرون-حـ٢-ص١٠٩.

٢- خلفاء الرسول -خالد محمد خالد-دار الفكر-ص٢٥١.

وبعدَ هجرةِ الرسول ﷺ إلى المدينةِ واجه المسلمونَ مشكلةً كبيرةً لا حد لهَا، فالمياهُ التي يعتمدُ عليهَا «المسلمونَ» في المجتمعِ الجديدِ الناشئِ لا تكفي ولا تسد حاجتهم.

فالماءُ العذبُ تفيضُ به عين تُدْعَى «بئرُ رومة» هذه البئرُ العذْبَةُ كان يملكُها رجلٌ يهوديٌّ، وهو يبيعُ الماءَ لمنْ أرادَ الشرابَ، ورغبَ الرسول ﷺ لو يجدُ واحداً من أصحابه يشتَري هذهِ البئرَ، حتى يستطيعَ المسلمونَ أن يجدُوا الماءَ الكافِي دونَ أن يضطرُّوا لشرائه، وفيهِم الفقير الذي لا يستطيعُ شراء الماءِ.

موقفُ «عثمانَ» من «بئر رومةَ»:

سارعَ عثمانُ لتحقيقِ رغبةِ الرسول ﷺ، مضحِّياً بمالهِ في سبيلِ راحةِ إخوانهِ من المسلمينَ، فقابلَ اليهوديَّ مالكَ البئرِ، وأخذَ يساومهُ، فعرضَ عليه في البدايةِ – أن يشتريهَا كلَّها منهُ، فرفضَ اليهُوديُّ. ذلكَ لأنهُ كانَ ماكراً خَبيثاً حريصاً على المالِ، فقد قدَّر أن بقاءَ البئرِ في ملكيته سوفَ يجعلُ بينَ يديهِ مالاً كافياً يتجددُ كلَّ يومٍ، كلما أرادَ المسلمونَ أن يشربُوا من المياهِ جاؤوا إليهِ فاشتروا منه.

كان ذلكَ اليهوديُّ شديدَ المكرِ حريصاً على مصلحته، كثيرَ الحبِّ للمالِ، ولكنَّ «عثمانَ»، المسلمَ الشديدَ الذكاءِ كانَ أشدَّ منْه حِرصاً، إذْ إنَّه

يعمَلُ على مصلحةِ المسلمينَ جَميعاً وهو على الحقِّ، وذلك اليهوديُّ الجشعُ على الباطلِ، فاحتالَ عليه «عثمانُ» واتفقَ معَه على أن يشتريَ منْه نصفَ البئرِ فقطْ، وأعطاهُ مقابلَ ذلك مبلغاً كبيراً من المالِ سالَ لعابُ اليهوديّ له، إذْ إنهُ أعطاهُ «اثنيْ عشرَ ألفَ درهمٍ»، وقبل اليهوديُّ العرضَ، قبله أمامَ المالِ الكثيرِ، الآلافِ الكثيرةِ، وافقَ دون أن يفكرَ، فلقدْ احتالَ «عثمانُ» حتى حصلَ على مايريدُ.

اتفَق مع اليهوديِّ على أن تقسَّم البئرُ بحيث يشربُ «المسلمونَ» يوماً، ثم يأتونَ إليه كيْ يشتروا منْه في اليومِ التالي، وهكَذَا. يومٌ للمسلمينَ ويومٌ لليهودي، صدَّق اليهوديُّ الذي أعماهُ المالُ عن التفكير، صدقَ الحيلةَ وباعَ، وانتظرَ أن يأتيَهُ «المسلمونَ» في يومِه ليشتروا منه، ولكنهمْ لم يفعلوا، ذهبَ يبحثُ، فاكتشفَ أنهمْ يشربونَ ويدخرونَ الماءَ لليومِ التالِي فليسَ لهمْ من حاجة إليهِ في اليوم الخاص باليهودي، ولما عرفَ الحقيقةَ ندمَ، ثم ذهبَ إلى «عثمانَ» يعرضُ عليهِ شراءَ النصفِ الآخرِ فاشتراهُ منه بعدمَا أثبتَ له غباءَه.

موقفُ «عثمانَ» من توسعَة المسجدِ:

كانَ أولُ أمرٍ فعله «الرسُول» في المدينةِ المنورةِ، هو قرارهُ بناء مسجدٍ لعظمِ دورِ المسجدِ في الإسلامِ، لذلكَ لمْ يحدد الرسُول المكانَ الذي سيقيمُ فيهِ قبلَ أن يحددَ مكانَ المسجدِ. حيثُ يعبدُ المسلمون ربَّهم؟

وبعدَما استقرَّ «المسلمونَ» في «المدينةِ» صارَ عددهمْ يزدادُ يوماً بعدَ يومٍ وأصبحَ المسجدُ يضيقُ بهمْ، ورغبَ الرسول ﷺ مرةً ثانيةً أن يجدَ واحِداً من الصحَابة يشتري قطعَة الأرْض الواقعةِ خلفَ المسجدِ كيْ يستطيعَ توسعَة المسجدِ، فيؤدي فيهِ «المسلمونَ» الصلاةَ دونَ أن يشعرُوا بضيقِ المكانِ.

ومرةً ثانيةً بعدَ أن حلَّ «عثمانُ» للمسلمينَ مشكلةَ «بئر رومة» يتدخلُ «عثمانُ» منفذاً رغبةَ رسُول اللَّه، وملء نفسه شعورٌ بالعزةِ والكرامةِ والفخرِ ويذهبُ إلى أصحابِ قطعةِ الأرضِ فيشتريهَا منهُم بثمنٍ كبيرٍ يقدرُه الرواةُ بخمسةَ عشرَ ألفَ درهمٍ.

وبقي «عثمانُ» إلى جوارِ الرسُول يجودُ بكلِّ ما لديه، فاشتركَ في نصرةِ الرسولِ حتى جاءَتْ «غزوةُ بدرٍ».

وفاةُ «السيدةُ رقيَّة»:

جرتِ الأحداثُ بسرعةٍ، فلقد علمَ «الرسول ﷺ» بخروجِ «أبي سفيانَ» في قافلةٍ تجاريةٍ لقريشٍ إلى الشَّام، وعرفَ أنهُ في طريقِ العودةِ سوفَ يمرُ بالمدينةِ، لذلكَ خرجَ إليهِ يريدُ أخذَ التجارة مقابلَ ما صادرتهُ «قريش» واستولتْ عليه من مالِ المسلمينِ بعد هجرتهمْ إلى المدينةِ، علمَ «أبو سفيانَ» بالأمر فغيرَ طريقهُ، لكنَّ قريشاً صمَّمتْ على الحربِ، بل وخرجتْ لها، وحينَ أرادَ المسيرَ كانتْ ابنتُه «السيدةُ رقيةُ» زوجُ «عثمانَ» مريضةً، فأذنَ الرسولُ

له بالبقاءِ إلى جوارِها[1] ، ومضَى ﷺ للقاءِ قافلةِ أبي سفيانَ، ثمَّ علمَ بعد ذلكَ بأنَّ أبا سفيانَ غيرَ طريقهُ واستنفرَ قريشاً للقتالِ وهيَ قادمةٌ فعلاً فثبتَ الرسُول والمؤمنونَ بما معهمْ من بسيطِ الاستعدادِ للقتالِ.

وبينمَا الرسولُ في «بدرٍ» اشتدَّ المرضُ على السيدةِ رقية، ولما انتهتْ المعركةُ عادَ «زيدُ بنُ حارثةَ» مسرِعاً يبشرُ المسلمينَ بالنصرِ وكانتْ روحهَا الطاهرةُ قد فاضتْ إلى ربهَا. فوصلتْ البشرى مع رجوعِ عثمانَ والمسلمينَ من المقبرةِ.

وبعدَ غزوةِ بدرٍ جعل النبيُّ لعثمانَ سهماً من الغنيمة. وكأنهُ اشتركَ في الحربِ بل إنَّ أجرَه في «بدرٍ» كَمَنْ شهدَ بدراً[2].

ذوُ النورين:

وبعدَ وفاةِ «السيدةِ رقية» رأى الرسول ﷺ «عثمانَ» مهموماً لهفانَ فقال له: – «مالي أراكَ مهموماً؟».

إنهُ الرسولُ الرحمةُ المهداةُ من اللّه يشعرُ بأصحابه، ويسألُ عن أحدِهِمْ إذا أحسَّ بأن هناكَ أمراً أحزنهُ، يسألُ «عثمانَ» عما به إذْ يراهُ مهمُوماً، فيجيبُ «عثمانُ»:

١– عثمان ذو النورين –محمد رضا–ص١٨.

٢– المصدر السابق ص١٩.

– « يا رسولَ اللَّه: وهلْ دخلَ على أحدٍ ما دخلَ عليَّ، ماتَتْ ابنةُ رسُول اللَّهِ التي كانتْ عندِي وانقطعَ ظهرِي، وانقطعَ الصهرُ بيني وبينَك ».

يوضحُ « عثمانُ » للرسولِ ما أحزنَه، يخبرهُ بأنهُ لا يرَى أحداً أصيبَ بمثل ما أصيبَ به، فلقدْ ماتَتْ ابنةُ الرسول ﷺ وتركتْه، ومن ثمَّ فقد انقطعَ النسبُ الذي بينَه وبينَ الرسُول. وهي التي كانتْ إلى جوارهِ نِعْمَ الزوجةُ المعينةُ في أحلكِ المواقفِ، ولقدْ هاجرتْ معَه إلى الحبشةِ، ولما وصلتْ إشاعةُ إسلامِ أهلِ مكةَ عادتْ معهُ إليهَا واكتشفا كذبَ الإشاعةِ رفضت العودةَ إلى « الحبشةِ » مرةً أخرى، وفضلتِ البقاءَ إلى جوارِ زوجِها وأبيها، إن « عثمانَ » حزينٌ لأنَّ عشرَتَه مع السيدةِ « رقيَّةَ » قد انتهتْ وهي سيدة فاضلةٌ، وكيفَ لا تكونُ كذلكَ وهي ابنةُ الرسول ﷺ، ومن ناحيةٍ أخرى فإنه حزينٌ لأنَّ النسبَ الذي كانَ يفخرُ به، ويراهُ منزلةً كريمةً أنعمَ اللَّهُ بهَا عليهِ، إذ جعَلَه صهرَ رسُولِه، وهذا النسبُ قد انتهى ـ في ظنِّه ـ بموتِ رقيَّةَ.

وبينمَا « الرسُول » و« عثمانُ » يتحدثانِ إذ هبَط جبريلُ الأمينُ –ملك الوحي– على قلبِ سيدنَا محمدٍ فقالَ الرسُول:

– « هذا جبريلُ –عليه السلام– يأمُرُني أن أزوجَك أختَها « أم كلثوم » وعلى مثلِ عشرتِها »[1].

١– عثمان ذو النورين – محمد رضا، ص١٢.

لقد هبطَ جبريلُ حاملاً أمراً إلهياً يقضِي بأن يتزوجَ «عثمانُ» الأختَ التاليةَ للسيدةِ رقيَّةَ، «السيدة أم كلثوم»، وذلكَ في نفسِ عامِ وفاةِ زوجِه الأولَى العامَ الثالثَ من الهجرةِ وبذلكَ اجتمَعَ لـ«عثمانَ» ما لمْ يجتمعْ لأحدٍ من قبلُ، إذ إنَّه لم يتزوجْ أحدٌ ابنتينِ من بناتِ رسول الله ﷺ سوى عثمان، وبذلكَ أُطلقَ عليه لقبُ «ذو النورين» أي زوجُ ابنتينِ من بناتِ الرسول ﷺ وكل منهمَا نورٌ اختصَّ اللَّهُ به «عثمانَ» دونَ أيٍّ من الصحابةِ الكرامِ.

وفاة السيدةِ أم كلثوم:

وشاءت إرادَةُ اللَّه عز وجل أن تتوفىً «السيدةُ أم كلثوم» أيضاً في حياةِ «عثمانَ» فلقدْ فاضتْ روحُها إلى خالقها في العامِ التاسعِ من هجرةِ الرسُول ، وقابلَ الرسول ﷺ «عثمانَ» بعدها فقالَ له:

– «لو أَنَّ لنا ثالثةً لزوجتُها عثمانَ».

إنه يتمنَّى تزويجَ «عثمانَ» من ابنة ثالثةٍ له، ويتمنَّى رغم أنه لمْ يبقَ عنده من بناته من لمْ تتزوج بعدُ، إن قولَ الرسول ﷺ يوفِّي «عثمانَ» حقَّه، فهو يستحقُّ هذهِ المنزلةَ، لذلكَ تمنَّى له الرسُول هذا الخيرَ..

عثمانُ ذوُ الحياءِ الشديد:

من صفاتِ «عثمانَ» الجميلةِ التي عُرِفَ بها بينَ الناسِ، الحياءُ الشديدُ، فهوَ رجلٌ شديدُ الخجلِ مما يغضبُ اللَّهَ عز وجل فكان شديدَ الخوف، يحرصُ على الابتعادِ عن الخطأ، حتى قبلَ إسلامه، كان «عثمانُ» رجلاً معروفاً بالحرصِ على تجنبِ الأمرِ القبيحِ الذي لا ترضَى عنه نفسُه الشريفةُ، وقد رُويَ عنه أنه قال:

- «ما زنيتُ ولا سرقتُ في جاهلية ولا في إسْلام»[1].

إنه ينفي عن نفسه ما وقعَ فيه الكثيرونَ من «شبابِ مكةَ»، إنّه يقولُ ويؤكدُ أنه لمْ يرتكبْ فاحشةً تعيبُه، ولم يمد يدَه إلى شيءٍ ليس له، لا في «جاهلية» ولا بعدها، إنه حياءُ «عثمانَ» الشديدُ يمنعُه دائماً من فعل لا يرضاهُ، إنه حياءُ «عثمانَ» جعلهُ منذُ الصغرِ لا يمرُّ بما يمرُّ بهِ غيره ويقع فيه ضِعَافُ الإيمانِ من حماقاتٍ وبُعدٍ عن الفعلِ الحسنِ.

الرسولُ يستحيي من «عُثْمان»:

وهذه الحكايةُ الطريفةُ ترويها لنا السيدةُ عائشةُ، وهي تدلُّ على عظمِ معرفةِ الرسُول بصحابتهِ، وتقديره لـ«عثمانَ»، وأيضاً تدلُّ على مكانةِ «عثمانَ» الكريمةِ لدَى الرسولِ، إنها حكايةٌ تدلُّ على حكمةٍ وتقديرٍ لا حد لهُما من «الرسُول» لـ«عثمانَ»، حكمةٍ استحقها «عثمانُ» وهي أعظمُ

١- خلفاء الرسول -خالد محمد خالد- دار الفكر- ص٢٥٧.

شهادةِ تقديرٍ يمكنُ أن ينالَها إنسانٌ في الحياةِ، وكيفَ لاتكونُ كذلك وهي صادرةٌ عن «الرسول ﷺ»؟

فلقد كانَ «الرسُول» عند عائشة وبينما هو مضطجعٌ إذْ بدتْ إحدَى ساقيْه فأرادَ «أبوُ بكر» أن يدخَلَ عليه، فاستأذنَ ودخَلَ، فحدَّثَه الرسُول، وأجابَه حتى انصرفَ، ثم جاءَ بعدَه «عمرُ بنُ الخطاب» فاستأذنَ في الدخولِ على «الرسول ﷺ» فأذنَ له، وحدَّثَه حتى مضَى، وقدَّرَ اللَّه أن يجيء بعدهمَا «عثمانُ»، فإذا بالرسول ﷺ يستعدُّ، فيجلسُ بعد أن كانَ مضطجِعاً، ويغطِّي بجلبابِه ساقَه، فبقي معَه «عثمانُ» بعضَ الوقتِ ثم استأذنَ وخرجَ.

وبعد ذهابِه لاحظتْ السيدةُ عائشةُ الأمرَ، فسألتِ الرسُول قائلةً:

– «يا رسُولَ اللَّهِ، لمْ أركَ تهيأتَ لأبي بكرٍ ولا لعمرَ كما تهيأتَ لعثمانَ؟».

إنها تتعجبُ، فالرسُول لم يستعد لدخولِ «أبي بكرٍ» عليه، ولا لدخولِ «عمرَ» كما استعدَّ لدخولِ «عثمانَ» فما هو السببُ؟ أجابها الرسُول ﷺ: «إنه رجلٌ حَيِيٌّ، ولو أذِنْتُ له وأنا مضطجعٌ لاستحيَا أن يدخلَ، ولرجَعَ دونَ أن أقْضِي له الحاجَة التي جاءَ من أجلها، يا عائشةُ: ألا أسْتَحِي من رجلٍ تستحِي منه الملائكةُ؟»[1].

١– خلفاء الرسول –خالد محمد خالد– ص٢٤٥ –دار الفكر.

كيف لا يستحي الرسول ﷺ ممن تستحي منه الملائكة.

فلو أن عثمان دخل على الرسول وهو مضطجع على الهيئة التي كان عليها ﷺ لاستحيا عثمان أن يدخل. ولم يُصَرّح بما جاء لأجله ولعاد من حيث أتى، ولأن الرسول ﷺ شديد المعرفة بأصحابه، حريص على معاملة كل منهم المعاملة المثلى التي يستحقها.

علم «عثمان»:

وكذلكَ اتصفَ عثمانُ بـ«العلمِ»، فلقدْ كانَ يعلمُ طريقَةَ أداءِ العباداتِ معرفةً دقيقةً، بل إنه كانَ من أعلم الصحابةِ بذلك[1].

قراءتُه القرآن:

كذلكَ كانَ «عثمانُ» دائمَ الصلةِ بربه، كانَ حَرِيصاً على قراءَة القرآنِ فكانَ يضربُ به المثلُ في حسنِ تلاوتهِ، وكانَ يصلي بالقرآنِ كلِّه في أسبوعٍ![2].

لذلكَ كانَ «عبدُاللَّه بن عمرَ» يقرأُ قولَ اللَّه تعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ ثم يقول:

١- عثمان ذو النورين -محمد رضا- ص٢٣.

٢- خلفاء الرسول -خالد محمد خالد- ص٢٩١ دار الفكر.

- «إنّه «عثمانُ بنُ عفانَ»[1] .

يحددُ عبداللّه بنُ عمرَ بن الخطاب الرجلَ المقصودَ بالمدحِ في كتابِ الله تعالَى بأنهُ «عثمانُ» ذلكَ الذي يقومُ للّهِ عابداً يسجدُ ويقومُ الليلَ، خائفاً من عذابِ الآخرةِ، راجياً رحمةَ اللّهِ، وهي شهادةُ حقٍّ شهدَها صحابيٌّ في حقِّ «عثمانَ» .

إنَّ صفاتِ عثمانَ الحسنةَ أكثرُ من أن تحصَى، وقد ذكرنا منْها جزءاً قليلاً وسنذكرُ ما كانَ يتحلى بهِ من كرمِ أخلاقٍ، وتضحيةٍ بالنفسِ والمالِ في سبيلِ اللّهِ، ويكفي أن نستشهدَ الآن بقولِ الرسول ﷺ :

- «لكلِّ نبيٍّ في الجنةِ رفيقٌ، ورفيقي في الجنَّة عثمانُ» .

ويا لهَا من شهادةٍ عزيزةٍ! ولقد استحقَّ هذهِ المكانةِ بما قدمَه في الإسلامِ، وبسببِ ما ذكرنَاه في صفحاتٍ ماضيةٍ، وما سنذكره في صفحاتٍ آتية.

١- خلفاء الرسول -خالد محمد خالد -ص٢٥٧ دار الفكر.